مظاهر أسلوبية في إجراءات تفسير سورة الضحى

أ.م.د. عامر مهدي صالح
كلية التربية جامعة الانبار

م. د.عبد الكريم محمود
الكلية التربوية المفتوحة/الانبار

المقدمة

الحمد لله الذي انزل القران وشرفنا بتلاوته وحفظه وترتيله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه ومن سار على هديه

وبعد : فإن اشرف الكلام كلام الله إذ إن فضله على ما سواه كفضل الله _ تعالى _ على خلقه ، ولذلك فإن الانصراف الى تفهمه وتدبر اياته والتأمل فيها يعدّ فيها من أعظم العبادات وأقدسها ؛ ولذلك فإن هذا البحث محاولة للولوج في هذا الميدان إذ جاء للكشف عن بعض المظاهر الاسلوبية في اجراءات تفسير سورة الضحى ؛ لأن الكشف عن هذه الاسرار يزيد الانسان يقينا وبصيرة إن اسلوب القران لا يدانيه اسلوب آخر مهما كان مصدره ؛ لأنه معجز ببيانه لقوله تعالى : □ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا □ (الاسراء : 88) .

لقد تتبعنا في هذا البحث جانبا من التقابل الدلالي الذي وقع في السورة ، وما حصل فيها من اللف والنشر عن طريق ذكر الآيات وتتبع أقوال المفسرين فيها ، وكشفنا عن طبيعة الاختيار للفاصلة القرآنية ثم بيّنا أسباب ذكر المفعول به ، واسباب حذفه وظاهرة التذكير والتأنيث ، والاستعارة ، والترادف ، والتقييد مع ذكر الآيات وتجلية المظاهر الاسلوبية بحسب ما ذكرت في كتب التفسير .

التقابل الدلالي في سورة الضحى :

للتقابل دورٌ كبيرٌ وحضورٌ بارزٌ في تكثيف الصور وإظهارها من خلال مقابلها ، وقد قيل : (وبضدها تتميز الأشياء) ، فحين نأخذ التقابل الموجود في سورة الضحى مثلاً نجده يأتي لافتاً إلى صورةٍ ماديةٍ مدركةٍ وواقعٍ مشهودٍ توطئةً بيانيةً لصورةٍ أخرى معنوية مماثلة غير مشهودة ولا مدّركة .

فالقرآن الكريم في قَسَمِهِ بالصبح (إذا أسفر) و (إذا تنفس) والنهار(إذا تجلى) والليل (إذا عسعس) و(إذا يغشى) و (إذا أدبر) ، يجلو معاني من الهدى والحق أو الضلال والباطل بماديات من النور والظلمة ، وهذا البيان للمعنوي بالحسي كما تقول بنت الشاطئ ([1]) .

وقد تنبه الرازي قديماً إلى مثل هذا إذ قال متحدثاً عن قوله تعالى : □ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى □ (الضحى : 1 - 3) : كأنه تعالى يقول : انظر إلى جوار الليل مع النهار لا يسلم أحدهما عن الآخر بل الليل تارةً يَغلِب وتارةً يُغلب ، فكيف تسلم عن الخلق ، فمرةً تزداد ساعات الليل ومرةً تزداد ساعات النهار ، ومرةً بالعكس فلا تكون الزيادة ولا النقصان لقلى بل لحكمة وكذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح ، فمرةً إنزال ومرةً حبس فلا كان الإنزال عن هوى ولا كان الحبس عن قلى ([2])

وكذلك تنبه ابن القيم إلى مثل هذا حين قال (فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسة) ([3]) ، وذهب محمد عبده إلى قريب

((1)) ينظر : التفسير البياني 1 / 25 – 26 .
((2)) ينظر : تفسير الرازي 30 / 420 .
((3)) التبيان في أقسام القرآن 72 .

هذا إذ ذهب إلى أن في القَسَم إشارة إلى أنَ ما كان من سطوع الوحي على قلبه أوّل مرة بمنزلة الضحى تقوى به الحياة وتنمو الناميات وما عرض بعد ذلك فهو بمنزلة الليل إذا سكن لتستريح فيه القوى ولتستعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل ([4]) فهناك إذن تقابل بين صورٍ حسية كل منها يقابل صوراً معنوية .

فالتقابل في سورة الضحى صورة مادية وواقع حسي يشهد به الناس في كل يومٍ تألق الضوء في ضحوة النهار ثم فتور الليل إذا سجا وسكن ، دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكارٍ ، بل دون أن يخطر على بال أحدٍ أن السماء قد تخلت عن الأرض أو أسلمتها إلى الظلمة والوحشة بعد تألّق الضوء في ضحى النهار ، فأيّ عجبٍ في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره على الرسول مدّة سكونٍ يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق ([5]) .

اللف والنشر :

وهو أن تذكر شيئين ثم ترمي بتفسيرهما جملةً ثقةً بأن السامع يردّ كل تفسيرٍ إلى اللائق به ([6]) ، ويبدو أن التعريف الذي ذكره الدكتور عبد العزيز عتيق أكثر دقة من هذا التعريف وهو (ذكر متعددٍ على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحدٍ من غير تعين ، ثقة بأن السامع يرده إليه لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية) ([7]) ، لأنه غير منحصر في مذكورين (شيئين) في بنية اللف وهو ضربان :

أحدهما المرتب : وهو أن يكون النشر على ترتيب اللف بأن يكون الأول من المتعدد في النشر للأول من المتعدد في اللف ، والثاني للثاني وهكذا إلى الآخر ، وهذا الضرب هو الأكثر في اللف والنشر والأشهر ([8]) ، كقوله تعالى : لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقا (النبأ :24-25) فالاستثناء هنا منقطع ؛ لأن الحميم ليس من جنس البرد في شيء ، إذ هو شديد الحر ([9]) ، ولأن الغساق ليس من جنس الشراب إذ ليس المهل من جنس الشراب والمعنى يذوقون الحميم إذ يراق على أجسادهم والغساق إذ يسيل على مواضع الحرق فيزيد ألمهم وصورة الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده في الصورة ([10]) فهذا البناء سمح للنفي أن يدخل على البرد والشراب وينفيهما قبل الاستثناء فلو لم يكن على هذه الطريقة لكان النظم (لا يذوقون فيها برداً إلا حميماً ولا شراباً إلا غساقاً) وفي هذا إطالة تخل بالإيجاز الذي هو عمدة البلاغة لما سيكون عليه التركيب من الإطالة ، فضلاً عن أن نظم الآية سيشكل نوعاً من إتاحة الأمل بعد شدة اليأس بالنسبة للكافر تكون أشد في الترهيب والألم ، فالآية بنيت على ما يسمونه طريقة المدح بما يشبه الذم أو الذم بما يشبه المدح ، كما يقول الشعراوي ، فحينما يسمع المُعَذَّب (إلا) يظن أن باب الفرج قد فتح له ، وبعد ذلك يأتي قوله تعالى : (حميماً وغساقاً) والحميم هو الماء المتناهي في الحرارة ، فهل هذا برد ؟ والغساق هو الصديد ، صديد أهل النار ، وهل هذا شراب ؟ ([11]) .

والضرب الثاني من اللف والنشر هو المفصّل (أو المشوَّش) وهو أن يجيء على غير ترتيب اللف قال تعالى : فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهةٍ وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم (عبس :) فـ ((إن فيما عددّه ما يأكله وينتفع به الإنسان ومنه ما يأكله الحيوان)) ([12]) ففيه لفٌّ ونشر مفصّل ، والسامع يُرجِع كل شيءٍ من المذكورات إلى ما يصلح له لظهوره ، وهذه الحال (متاعاً) واقعة موقع الإدماج أدمجت الموعظة والمنة في خلال الاستدلال ([13]) .

وقد يحتمل التركيب الواحد أن يكون مرتباً أو مفصّلاً كما في قوله تعالى في سورة الضحى والتي

((4)) ينظر : الأعمال الكاملة لمحمد عبده 5 / 95 .
((5)) ينظر : التفسير البياني 1 / 26 .
((6)) التبيان 177 ، وينظر : البرهان 313 .
((7)) علم البديع 167 ، وينظر : البديع في ضوء أساليب القرآن 88 ، 90 .
((8)) علم البديع 168 .
((9)) ينظر : المفردات 185 .
((10)) ينظر : التحرير والتنوير 30 / 38 .
((11)) ينظر : المختار 2/ 68 .
((12)) الأعمال الكاملة لحمد عبده 5 / 331 .
((13)) ينظر : التحرير والتنوير 30 / 134 .

بنيت كلُّها على طريقة اللف والنشر وعلى الشكل الآتي :

	بنية لفّ (أ)	بنية نشر (ب) بنية لف	(جـ) بنية نشر
1	وللآخرة خيرٌ لك من الأولى	(و) وجدك ضالاً فهدى	(و) أما السائل فلا تنهر
2	ولسوف يعطيك ربك فترضى	(و) وجدك عائلاً فأغنى	(و) أما بنعمة ربك فحدث
3	ما ودّعك ربك وما قلى	ألم يجدك يتيماً فآوى	فأما اليتيم فلا تقهر

فلا خلاف في ترتيب بنية اللف (أ) وبنية النشر (ب) باعتبار النشر مرتباً ، غير أن هناك خلافاً في ترتيب بنية اللف (ب) وبنية النشر (جـ) في البنية (2) و (3) حيث عَدَّ بعض المفسرين اللف فيها مشوشاً وعلى الشكل الآتي ([14]) :

ووجدك ضالاً فهدى ⟺ وأما بنعمة ربك فحدّث

ووجدك عائلاً فأغنى ⟺ وأما السائل فلا تنهر

(نهاه عن قهر اليتيم جزاءً لما أنعم به عليه في قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ونهاه عن نهر السائل في مقابلة قوله (ووجدك عائلاً فأغنى) ، وأمره بالتحدث بنعمة ربه وهو في مقابلة قوله (ووجدك ضالاً فهدى ....) ([15]) والمعنى (تعطف على اليتيم وآوه فقد ذقت اليتيم وهوانه .. وترحم على السائل .. كما رحمك ربك فأغناك بعد فقرك ، وحدّث بنعمة الله كلها ، ويدخل تحته هدايتك الضالّ وتعليمه الشرائع والقرآن ، مقتدياً بالله في أن هداك من الضلال ..) ([16]) ، وعَدَّ بعض المفسرين اللف هنا مرتباً وعلى الشكل الآتي ([17]) :

ووجدك ضالاً فهدى ⟺ (و) أما السائل فلا تنهر

ووجدك عائلاً فأغنى ⟺ (و) أما بنعمة ربك فحدّث

لذلك ذكر الشعراوي أن في هذه السورة سرٌّ عجيب في نظمها فقد نظمت وفيها قسمٌ و تسع آياتٍ ، القسم هو (والضحى والليل إذا سجى) والجواب (ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) ... فأتى لهم على كل قضية بدليل (ما ودعك ربك وما قلى) تستدعي (ألم يجدك يتيماً فآوى) وهذه مؤكدة لها ، وقوله (ووجدك ضالاً فهدى) أدى إلى (وللآخرة خير لك من الأولى) ؛ لأن الهداية خير أما (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فالمقابل لها آية (ووجدك عائلاً فأغنى) ما دمت أنت ما ودعك ربك وما قلاك ، والدليل على ذلك أنك كنت يتيماً فآواك (فأما اليتيم فلا تقهر) ، أما قوله (ووجدك ضالاً فهدى) فما دام قد هدى فقد تعين مجيء (وأما السائل فلا تنهر) وقوله تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) فيقابل قوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدّث) ([18]) . والسبب كما يبدو في اختلاف المفسرين في تعيين بنية النشر المقابلة لبنية اللف هو اختلافهم في المعنى المقصود للفظتين (السائل) و (النعمة) في الآيتين السابقتين ، فالتعريف في السائل كما يقول الطاهر بن عاشور تعريف الجنس فيعم كل سائل ، أي عما يُسأل عنه النبي ﷺ عن مثله ويكون النشر على ترتيب اللف ، فإن فُسر (السائل) بسائل المعروف كان مقابل قوله تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) وكان من النشر المشوش أي المخالف

((14)) ينظر : روح المعاني 30 / 164 ، وغرائب القرآن 30 / 112 – 113 ، وعليه ظاهر كلام الزمخشري 4 / 265 .

((15)) غرائب القرآن 30 / 112 – 113 .

((16)) الكشاف 4 / 265 .

((17)) ينظر : المعترك 1 / 311 ، والقاسمي 17 / 181 ، والأعمال الكاملة لمحمد عبده 5 / 543 – 544 والمختار 3 / 84 .

((18)) ينظر : المختار 3 / 84 – 85 .

لترتيب اللف ، ويكون بذلك قوله : (وأما بنعمة ربك فحدث) مقابلاً لقوله (ووجدك ضالاً فهدى) ([19]) وقد اعتمد القائلون بالترتيب عن أن المراد بالنعمة الغنى كما يدلّ عليه سياق الآيات ، لمقابلة (وأما بنعمة ربك فحدث) لقوله (ووجدك عائلاً فأغنى) كما يقول القاسمي ومحمد عبده ([20]) ، ولو كانت النعمة بمعنى النبوة لكانت مقابلة لقوله (ووجدك ضالاً فهدى) لذلك نجد محمد عبده يرى أن السائل هو المستفهم عما لا يعلم وليس طالب الصدقة وحجته على ذلك أن هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله عنواناً للفقير والمسكين بل جرت سنة الكتاب المبين على ذكرهما بوصفهما ([21]) .

والمقصود ما يدل على المعنى بنفسه بدون قرينة تبينه كما في قوله تعالى : □ وفي أموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم □ ([22]) (المعارج:24) ، وذكر أن السياق يأباهُ أشد الإباء لأن لفظ السائل لابد أن يكون في الآية دالاً على معنى يلاقي شيئاً مما ذُكِرَ في الآيات التي سبقته لأن هذا التفصيل مُفرّعٌ على ما قبله فلو أريد منه (طالب الصدقة) لم يتوهم أن يكون ملاقياً إلا لمعنى (العائل) وهو الفقير والسائل ليس عنواناً له ، وقد بين ، على حدّ قوله ، إن الذي يقابل (العائل) فيها هو التحديث بالنعمة وإذا لم يصحّ مُلاقياً لشيءٍ مما سبق إلا بحمله على المُستفهم طالب البيان الذي هو عنوان له يتبادر منه إلى الذهن عند الإطلاق تعين حمله عليه ويكون ذلك ملاقياً لمعنى (ووجدك ضالاً فهدى) ([23]) ، وهذا قول السيوطي إذ قال : (إن المراد السائل عن العلم) ([24]) وهو رأي بنت الشاطئ حين قالت : (وهو عندنا أولى بالمقام ويؤيده الاستئناس بالاستعمال القرآني لمادة (سأل) حيث ترد كثيراً في هذا المعنى كما يرجحها سياق الآيات قبلها) ([25]) .

والتأمل في سورة الضحى وبنية اللف والنشر يقودني إلى القول إنّ أهم وظيفة لهذه البنية فضلاً عن الفهم الدقيق للعلاقات القائمة بين هذه البنى وصولاً إلى الدقة في معرفة الحدود الدقيقة لمعاني المفردات داخل البنية ، فضلاً عن هذا فأن الوظيفة الأساسية هي ربط أجزاء اللف والنشر في بنية كلية قائمة على نوعٍ من المرجعية الدلالية أو الموضوعية في بنية اللف ، يحسها القارئ عند قراءته لبنية النشر تجعل في عملية تشكيله لها وربطها وسيلة يتم بها ومن خلالها بناء تشكيلات بنائية جديدة تمثل إثراء للنص المقروء ، وتسمه بطابع التواصل وصولاً في بعض النصوص ، كسورة الضحى ، إلى خلق وحدة كلية للنص يتشكل بموجبها نمطان من القراءة ، يمكن أن تُسمَى القراءةُ التاليةُ للقراءةِ الأولى بالقراءة الاستدعائية .

حرية الاختيار للفاصلة القرآنية :

إنّ طبيعة الاختيار في القرآن الكريم إنما تأتي بحسب حاجة السياق أو النظم لا بحسب مطلبٍ شكلي مسبق يُفرض على السياق (قد يكون متوافقاً صوتاً ودلالةً معه) بدايةً إلا أنه يبقى مفروضاً حتى بعد انعدام التوافق ؛ لتغير السياق كما في القافية في البناء الشعري والسجع في البناء النثري (الفني) ، ولعل هذا أكبر عيب يوجهه النقد الصوتي إلى قصيدة الشعر العمودي والنثر الفني (المسجوع) لأنّ المؤلف يكون هنا أمام اختيارٍ مشروطٍ ؛ لذلك قيل قديماً (فواصل القرآن تابعة للمعاني وأما الأسجاع فالمعاني تابعةٌ لها) ([26]) ، ولعل هذا أبرز سمةٍ أسلوبية اختص بها القرآن في أنه لم يكن مختاراً لما يُعدُّ الأفصح أو حتى المشتهر من أساليب العرب وإنما كان حرّاً حريّةً كاملة في اختياراته الأسلوبية الأمر الذي لم يعطه التفرد الشكلي فقط وإنما حاز التفرد المعنوي كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

((19)) ينظر : التحرير والتنوير 30 / 402 – 403 .
((20)) ينظر : تفسير القاسمي 17 / 182 ، والأعمال الكاملة لمحمد عبده 5 / 441 .
((21)) ينظر : الأعمال الكاملة لمحمد عبده 5 / 440 .
((22)) ينظر : المصدر السابق 5 / 444 .
((23)) ينظر : المصدر السابق 5 / 445 .
((24)) معترك الأقران 1 / 311 .
((25)) التفسير البياني 1 / 53 .
((26)) النكت 89 .

ومن هذا ، ورغم اعترافي الكامل بالوحدة الموضوعية للسورة ، يمكن أن نقسم السورة الواحدة على عدّة بنى منفصلة أسلوبياً بحسب الاستخدام الصوتي للفاصلة ، فكل مجموعة من الآيات تتناول جانباً معيناً (على مستوى الدلالة أو الصورة) تشترك في استخدام فاصلةٍ معينة ما أن تتغير حتى يكون هذا الجانب (الدلالي أو الصوري) قد تغير لا لتغير الفاصلة ، لأن التغير كان له ومن أجله ، وعلى الرغم من أن كل هذه التشكيلات ذات الفواصل المتحدة تنصب في وحدة موضوعية واحدة تتجلى في أوضح صورها في اختيار المفردة (صوتاً ودلالةً وبنيةً وحالاً) في كل السور القرآنية ، وخير مثالٍ على ذلك سورة الضحى إذ يمكن أن تكتب ، وحسب التشكيلات الأسلوبية للفاصلة ، بالشكل الآتي :

 والضحى ، والليل إذا سجى * ما ودّعكَ ربُّكَ وما قلى * وللآخرة خيرٌ لكَ من الأولى *
ألم يجدكَ يتيماً فآوى * ووجدكَ ضالاً فهدى * ووجدكَ عائلاً فأغنى *
فأما اليتيمَ فلا تقهر * وأما السائلَ فلا تنهر * وأما بنعمة ربِّكَ فحدِّث (سورة الضحى) .

فما أن انتقلت الفاصلة من صوت (الألف) إلى الراء ، إلا وقد انتقل قبلاً المعنى الدلالي ذو الجرس المدّي (الألف) المناسب لمقام تطمين الرسول بعد انقطاع الوحي وإخباره بعدم (التوديع ولا القلى) لذلك ما كان أنسب هنا من صوت المدِّ (الألف) ليكون فاصلة وجاء اختياره دون أصوات المدِّ الآخر لعذوبته ورقته ([27]) ، التي ناسبت الألفاظ الرقيقة المختارة (الضحى ، سجى ، ودعك ...) ذات الجرس الهادىء ، فالألف هو الصوت الذي يمثل الوضوح السمعي الأعلى في أصوات العربية لامتداده ([28]) وهو السرُّ في اختيار (الضحى) قسماً فدلالة الوضوح هي الملحوظة في كل الاستعمالات الحسية للمادة (ضحى) فالضاحية السماء ، وقيل لما ظهر وبدا ضاحية ... ([29]) .

أقول ما إن انتقلت الفاصلة حتى انتقل قبلها المعنى لذلك جاءت تبعاً له مناسبةً ما دلّ عليه من أمرٍ وإلزام ، ولما لم يكن الصوت الممتد ملائماً له عُدِلَ عنه إلى صوت (الراء) المكرر الذي يشبه بصوته الإلزام والتأكيد خصوصاً بعد إن جاء بعد الهاء الصوت الحلقي (ثاني أبعد مخرج صوتي في أصوات العربية) ([30]) مما سيعني امتداداً في النفس لمسافة طويلة نسبياً إلى أن يقطع تماماً عند نطق الراء نتيجة انطباق اللسان على اللثة ([31]) .

وكما قلت أولاً : فإن هذه التشكيلات الصوتية بحسب الفاصلة تنصب في وحدة موضوعية واحدة تتضح في كيفية اختيار المفردة (صوتاً ودلالة وبنية وحالاً) على طول السورة مما يحقق علاقات مترابطة داخل البنية الكلية ففي سورة الضحى قال تعالى : ولسوف يعطيك ربُّكَ فترضى (الضحى : 11) حُذف المفعول الثاني لـ (يعطيك) وهو العطية في ذلك أن السياق هو سياق ترضيه وتأميلٍ بالفضل العظيم فلو ذُكِرَ أي مفعولٍ يحدّدُ نوع العطية لخرجت بقية الأنواع منها فلو قيل يعطيك الرحمة أو الفضل أو الجنة .... الخ لما جاء التعبير على ما هو عليه الآن إذ كلّ ما يمكن أن يُتَصوّر من نِعَمٍ وعطايا يمكن أن يدخل تحت هذا المحذوف ، فلا وجه لتحديد المقصود بالعطاء كما تقول بنت الشاطيء بل المفضل إطلاقه مسايرةً للبيان القرآني الذي لم يشأ أن يحدده ، فحَسْبُ الرسولُ الإعطاءُ الذي يرضيه وليس وراء الرضى مطمح ولا بعده غاية ... والأليق بجلال الموقف أن يُكتفى فيه بالرضى على ما أراد

((27)) كثيراً ما ارتبط الواو وحركته (الضمة) بمعنى القوة والياء وحركته الكسرة بمعنى الضعف والرقة .
((28)) ينظر : علم الأصوات العام 96 .
((29)) ينظر : التفسير البياني 1 / 30 .
((30)) ينظر : الدراسات الصوتية 192 .
((31)) ينظر : علم الأصوات العام 128 .

البيان القرآني وهو فوق كل تحديد ووراء كل وصفٍ ([32]) .

وفي التشكيل الأوّل : قال تعالى : ﴿ ما ودّعك ربُّك وما قلى ﴾ (الضحى :3) حيث حُذِفَ الضمير العائد على الرسول ﷺ في (قلى) إذ الأصل (قلاك) ، وقد أضافت بنت الشاطيء إلى مذهب الزمخشري والطبري وأبي حيان ([33]) ، مِن أن الحذف للاختصار اكتفاءً بفهم السامع للمعنى إذ كان قد تقدم ذلك قوله : ما ودعك فَعُرِف أنّ المخاطب به النبي ﷺ ، سبباً ألطف وأدق وهو (تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس : ما قلاك لما في القلى من الطرد والأبعاد وشدة البغض أمّا التوديع فلا شيء فيه من ذلك . بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق (على كُرْهٍ) مع رجاء العودة) ([34]) وكان هذا الملحظ السبب في رفضها تعليل الحذف برعاية الفاصلة فقط إذ ليس من المقبول عندها أن يقوم البيان القرآني على اعتبار لفظي محض وإنما الحذف لمقتضى معنوي بلاغي يقوّيه الأداء اللفظي دون أن يكون الملحظ الشكلي هو الأصل لأن البيان القرآني لو كان مما يتعلق بمثل هذا لما عَدَلَ عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحى ([35]) .

(التشكيل الثالث) : (وأما بنعمة ربك فحدث) ، ولأي باحث الحق في أن يسأل عن سبب مجيء الثاء فاصلةً هنا ، علماً أن سورة (الضحى) لم يرد فيها كلها صوت الثاء إلا في هذا الموضع بل إنّ الثاء لم يأتِ فاصلةً في جميع القرآن غير هذا الموضع ، فلماذا عُدِلَ عن الراء في هذا الموضع وحده وفي السعة أن يقال (وأمّا بنعمة ربِّك) فخبّر ويمكن الإجابة عند ذلك بعدة أجوبة كلّها تؤكّد صحة هذا الاختيار وقصديته منها :

1. إنّ (خَبِّر) لو استبدلت - في غير القرآن - مكان (فحدّث) لكانت موافقةً من حيث كونها فاصلة لـ (فلا تقهر وفلا تنهر) بالحرف لا بالصفة الصوتية ؛ لأن (فخبّر) ، ساكنةَ الراء لغير الوقف مكسورةَ ما قبله ، ستكون مرققةً ؛ لأن الكسرة لازمةٌ غيرُعارضةٍ متصلةٌ بالراء في كلمتها وليس بعد الراء حرف استعلاء وهذه شروط ترقيق الراء الساكنة لغير الوقف بعد كسرٍ ([36]) . في حين أن الراء في (تنهَرْ وتقهَر) مفخمة لوقوعها بعد الفتحة وهذا شرطها ([37]) كما أن حركة ما قبل الراء مختلفة والراء ساكنة وقد عيب هذا في قافية الشعرعند أغلب العروضيين وسمَوه بـ (سناد التوجيه) وهو اختلاف حركة ما قبل الروي في القافية المقيدة بالسكون ([38]) .

2. وبالمقابل فإن صوت الثاء مما يوافق حاجة ودلالة السياق تماماً فهو من حروف التفشي ([39]) على أن السبب الدلالي هنا مهمٌ في هذا العدول فلا يصح ما يقال من ترادف مثل (حدِّث وخبَّر) فبينهما فروق عدّة كلها تحتم اختيار (فحدِّث) في هذا السياق مثل ([40]) : إنّ الأخبار أو الخبر: هو القول الذي يصحُّ وصفه بالصدق والكذب، ويكون الأخبار به عن نفسك وعن غيرك ... والحديث في الأصل هو ما تخبر به عن نفسك من غير أن تسنده إلى غيرك والدليل على هذا أنه يُقال : فلان يحدث عن نفسه ... وهو حديث النفس ولا يقال يخبر عن نفسه ولا هو خبر النفس ويجوز أن يُقال إن الحديث ما

((32)) ينظر : التفسير البياني 1 / 38 – 40 .
((33)) ينظر : الكشاف 4 / 263 – 264 ، والطبري 30 / 147 ، والبحر 8 / 485 .
((34)) التفسير البياني 1 / 35 .
((35)) ينظر : المصدر السابق 1 / 35 .
((36)) ينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد 482 – 483 .
((37)) ينظر : المصدر السابق 482 .
((38)) ينظر : فن التقطيع الشعري 282 .
((39)) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة 110 و 201 ، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد 319 نقله الداني في التحديد 19 ، و التفشي كثرة خروج الريح وانبساطه عند خروج هذه الحروف ، ينظر : الرعاية 109 والدراسات الصوتية 319 .
((40)) ينظر : الفروق في اللغة 32 .

كان خبرين فصاعداً إذا كان كلّ واحدٍ منهما متعلقاً بالآخر فقولنا رأيت زيداً خبر ورأيت زيداً منطلقاً حديث .... وبهذا ندرك أنّ السر في تغير نظام الفواصل ناتج عن أن لهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض وتقتضي إيقاعاً رصيناً بدل إيقاع القصة الرخي المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير) ([41]) .

3. الإخبار لا يقتضي التكرار يكفي أن تقول الخبر مرة واحدة فيكون إخباراً . أما التحديث فهو يقتضي التكرار والإشاعة أكثر من مرة ، وفي سياق الآية يجب أن يتكرر الحديث عن الدعوة إلى الله مرات عديدة ولا يكفي قوله مرة واحدة . ولهذا سمى الله تعالى القرآن حديثا (فليأتوا بحديث مثله) . فمعنى (فحدث) في هذه الآية هو المداومة على التبليغ وتكرارها وليس الإخبار فقط فيمكن أن يتم الإخبار مرة واحدة وينتهي الأمر ([42]) .

حذف المفعول به :

اختلف في سبب ذكر مفعول فعل التوديع وحذف مفعول فعل قلى ، فقيل :

1. للاستغناء عنه بذكره متقدما مع انه لم يغفل رعايته للفواصل ، فقد حذفت الكاف اكتفاء بالكاف الأولى في ودعك ، ولأن رؤوس الآيات بالياء ، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف ([43]) . أي أنه مراعاة لفواصل الآيات في السورة (الضحى، سجى، قلى، الأولى،...) لكن القرآن العظيم لا يفعل ذلك لفواصل الآيات وحدها على حساب المعنى أبداً ولا يتعارض المعنى مع الفاصلة والمقام في القرآن كله ([44]) .

2. حذف الضمير من قلى كحذفه من (الذاكرات) في قوله : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات)(الأحزاب : 35) ، يريد : والذاكراته ونحوه : (فآوى . . . فهدى . . . فأغنى) وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف ([45])، بمعنى أن الخطاب واضح من الآيات انه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

3. مُراعاة لطول الفِقَر ، وهو قول لطالما أكَّد عليه الأستاذ إبراهيم السامرائي في تعليل مباحث متفرقة كالحذف والتقديم والتأخير .. فإذا كان أغلب الدارسين للتعبير القرآني قد توقفوا عند مثل قوله تعالى : □ والليلِ إذا يسرِ □ مثلاً دون ذكرِ علةٍ لهذا الحذفِ غير رعايةٍ للفواصل ، فقد قدَّم الدكتور إبراهيم السامرائي تعليلاً دقيقاً لهذا الحذف مدارُهُ العناية بطول الآية ومشاكلتها في الطولِ لبقية الآيات التي قبلها سّماه (بديع القرآن) فـ (جملة هذه العناية بطول الآية واستبدال بعضِ الكلم ببعض مقصود لما يؤدي إليه من نظامٍ حسنٍ هو أسلوب (بديع القرآن)) فالحذف عنده هنا لايجوز إلا في مقامٍ يستدعيه ضربٌ من المشاكلة أو التناسب كما في (يسر) فبالإضافة إلى رعاية الفواصلِ القائمة على الراء المكسور بكسرة طبيعية تأبى أن تطول الكسرة بعد الراء في الفعل فيكون منها المدّ الطويل بالياء ، وفي ذلك مُراعاة لطول الفِقَر التي تضمنتها الآيات ، ولما كانت الياء تخلُّ بهذا الطول المقدّر المقيس حُذِفت مشاكلةً وتناسباً ومثل هذا حذف ياء الإضافة في قوله تعالى : □ فكيف كان عذابي ونُذُر □ (القمر : 20) وحذف المفعول كما في قوله تعالى : □ ما ودعك ربُّك وما قلى □ (الضحى : 3) ([46]) .

4. لئلا يواجه الرسول عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى اليه وان وردت هذه النسبة في سياق النفي (

((41)) البيان في إعجاز القرآن 199 .
((42)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1 / 243.
((43)) ينظر : تفسير الآلوسي 23 / 3 .
((44)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1 / 243.
((45)) ينظر: الكشاف 7 / 302 ، والتحرير والتنوير 16 / 298.
((46)) ينظر : من وحي القرآن 132 .

[47]) ، أما التوديع فالذكر فيه تكريم للمخاطب فيحسن ذكر المفعول مع أفعال التكريم وحذفه مع أفعال السوء ولو بالنفي . وهكذا يوجه الله تعالى المسلمين لأدب الكلام ويعلمنا كيف نخاطب الذين نجلهم ونحترمهم . ولقد جمعت هذه الآية التكريم للرسول من ربه مرتين مرة بذكر المفعول مع فعل التوديع ومرة بحذف المفعول مع الفعل قلى ([48]) ، قال الآلوسي : لنفي صدوره من الحق سبحانه وتوجهه للرسول الكريم ([49]) .

وواضحٌ أن الأولى القول بكل ما قيل علَّةً لهذا التعبير ؛ إذ إن طول الفقر مرعيٌ في التعبير القرآني وكذلك تناسب الفواصل من غير أن يكونا سبباً في فعل ما تجيزه اللغة أو تجعله ضرورة كما في الشعر ، فكل ما روعي فيه هذين الجانبين أعني تناسب الفقر بالطول ورعاية التوافق الصوتي في الفاصلة إنما جاء على أساليب العربية في معهود كلامها ، كما هي الحال ثمت ، فمع ملاحظة هذين السببين روعي أن يكون ذلك موجوداً في العربية لجواز الاستغناء عن العائد لتقدم ذكره اولاً ، لكن ما يجب أن يؤكد هنا أن هذه التعليلات (مراعاة الفاصلة وتناسب طول الفقروطول الآية) ، إنما تجوز التعبير لا تعلله ، بمعنى أن من علَّل التعبير بهذه إنما قال لنا إن هذا الأسلوب في التعبير جائز عربيةً بمعنى الصحة . والتفسير البياني يجب ألا ينظر إلى التجويز بين الاسلوبين بقدر نظره إلى علة الاختيار لاسلوب ما من بين عدة أساليب وفقاً لسياقه ومقتضى الحال الذي قيل فيه ، وإلا كان عملنا مقصوراً على تأكيد الصحة النحوية دون بلاغة الكلام ؛ لأن البلاغة : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ؛ لذلك كان الوجه الرابع من هذه الوجه (لئلا يواجه الرسول عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى اليه وان وردت هذه النسبة في سياق النفي) هو أولى لأنه جاء في سياق تطمين الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورفع ما قد يكون في نفسه من ضيقٍ لتأخر الوحي عنه ، ذاك أن المتأمِّل في مادة (ودع) و (قلى) في معاجم العربية ([50]) ليخرج بالآتي :

ودع	فراق	بين الأحبة في الغالب	يرجى اللقاء بعده	فعل يأتي في سياق الألفة والمودة والتحبب
قلى	هجر	عن كره وبغض	لا يرجى بعده لقاء	فعل يأتي في سياقات الكره والهجر والبغض

لذلك كان السياق البلاغي يستلزم هنا هذا الاستعمال ، وإلا ذكر ما يدل على الإيحاش في معرض التطمين وليس فيه مراعاة لمقتضى الحال البلاغي مما ينفي بلاغة التعبير ، وهو أمرٌ ليدركه واضحاً جلياً من سبر التعبير القرآني وخبر أساليبه ولا سيما في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم :

من ذلك قوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءَهُ الأعمى وما يدريك لعله يزّكّى ...)(عبس : 1 – 3) ففي الآية التفات عن الغيبة إلى الخطاب وفيه (انكار للمواجهة بالعتب أولاً ، إذ في الغيبة إجلال له ؛ لإيهام أنّ من صدر منه ذلك غيرهُ ، لأنَّه لا يصدر عنه مثله ، كما إنّ في الخطاب إيناساً بعد الإيحاش وإقبالاً بعد إعراض ([51]) ، أي فيه مراعاة نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا كثيرٌ في القرآن ، كما في التقديم في قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذِنتَ لهم) فمعهود الكلام تقديم العتب على العفو ، لكن التعبير هنا جاء بتقديم العفو على المعاتبة زيادة في تطمينه صلى الله عليه وسلم ، ولئلا يدخله شئ من الضيق قبل تمام الآية ، واختيارنا في آية عبس أولى من قول النيسابوري أن (في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب دلالة على مزيد

((47)) ينظر : تفسير الآلوسي 23 / 3 .
((48)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1 / 243.
((49)) ينظر : تفسير الآلوسي 23 / 3 .
((50)) لسان العرب 293/11 .
((51)) تفسير القاسمي 17 / 53 .

الإنكار ، كمن يشكو جانياً بطريق الغيبة وهو حاضرٌ ثم يُقبلُ على الجاني مواجهاً بالتوبيخ ...) ([52]) إذ لو أُريد الزيادة في الإنكار لأُتيَ بالخطاب أولاً فهذا أشدُّ وقعاً وإن رأى محمد عبده أنه ذكر خبر العبوس والتولي بالحكاية عن الغائب ليلفته إلى النظر في العمل في ذاته صادراً من أي شخص نُسبَ إليه ، وخاطبه بعد هذا الاستدعاء تشديداً في العتاب ([53]) ذلك أن العتاب هنا ليس بسبب التقصير المفترض في سياق السورة ، بل جاء على أنه حَمّلَ نفسه من المشقة ما لم تطلبه الرسالة بدليل (أما من استغنى فأنت له تصدّى ، وما عليك ألا يزّكى)(عبس : 5-7) فالعتاب كان لصالح الرسول صلى الله عليه وسلم لا كما يأخذه (السطحيون) ، كما سماهم الشعراوي رحمه الله ، من المفسرين بأن ذلك عَتَبٌ على تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ([54]) فقد كان العتاب حرصاً عليه وتخفيفاً عنه ، لا عتاب تقصير وحساب ، وهو الصحيح ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجهدُ نفسه في الدعوة إلى الله ، فيوجهُهُ الله عز وجل لما فيه راحته ، قال تعالى : (فلا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه) (طه : 114) وقال تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه) (القيامة : 16) وقال تعالى : (فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)(الكهف : 6) ...

فجاء التعبير (ما ودعك) و (ما قلى) بدون كاف المخاطب في الثانية تطميناً وإنْ في سياق النفي وهذا من بديع لغة التنزيل في رعاية المعاني الهامشية للألفاظ ومطابقة ظلالها لمقتضيات الحال، كما في قوله تعالى في خطابه صلى الله عليه وسلم (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر) في حين أن التعبير القرآني يورد لفظ الأيمن في وصف الطور في قصة موسى دائما قال تعالى : (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) و(وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن) و (نُودِيَ مِن شَاطِىء الوادى الأيمن) لكن في خطابه صلى الله عليه وسلم تُرِكَ لفظ (الأيمن) وجئ بفظ (الغربي) في سياق النفي (وما كنت بجانب الغربي ..) إذ لو أجري التعبير على معهود الاستعمال في غير القرآن لقيل : وما كنت بجانب الطور الأيمن ... وكان فيه نفي ما صفته اليُمْنَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم ؛ فلكيلا يرد في ظلال معنى التعبير مثل هذا الوارد قيل ما جاء به التعبير القرآني ، وهذا من بديع لغة التنزيل في رعاية المعاني الهامشية .

التذكير والتأنيث:

غالباً ما أنثت الأسماء في سور القرآن الكريم لإرادة التناسق الصوتي مثل وصدّق بالحسنى (الليل : 6) و فسنيسره لليسرى (الليل : 7) .... على أن مثل هذه الظاهرة اللغوية استخدمت لغايات تعبيرية كقوله تعالى : وللآخرة خيرٌ لك من الأولى (الضحى : 4) فالآخرة مؤنث الآخِر والأولى مؤنث الأول ، وغُلِّبَ لفظ الآخرة في اصطلاح القرآن على الحياة الآخرة وعلى الدار الآخرة كما غلّب لفظ الأولى على حياة الناس ، فيجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظيين كلا معنييه فيفيد أن الحياة الآخرة خير له من الحياة العاجلة ويفيد أن حالاته تجري على الانتقال من حالةٍ إلى أخرى أحسن منها فيكون التأنيث جارياً على حالتي التغليب وحالتي التوصيف ويكون التأنيث في المعنى الثاني لمراعاة معنى الحالة ([55]) .

فقد جئ بلفظ الآخرة في سورة الضحى مقابل الأولى ولم يأت مقابل الدنيا فلم يُقَل وللآخرة خير لك من الدنيا ، مع أن القرآن يقابل بين الدنيا والآخرة . ومعنى الآية أن ما يأتي خير لك أيها الرسول مما مضى ؛ أي من الآن فصاعداً فيما يستقبل من عمرك هو خير لك من الأولى وأكد ذلك باللام في كلمة وللآخرة . وقد حصل هذا بالفعل فكل ما استقبل من حياته ، صلى الله عليه وسلم ، خير له مما حصل .

فلو قيل خير لك من الدنيا لما صحت إلا في الآخرة فكأنما حصر الخير في الآخرة فقط ونفى

((52)) غرائب القرآن 30 / 26 .
((53)) ينظر : الإعمال الكاملة 5 / 327 .
((54)) ينظر : المختار 1 / 94 .
((55)) ينظر : التحرير 30 / 397 .

حصول الخير فيما يستقبل من حياته ، صلى الله عليه وسلم ([56]) .

الاستعارة :

استعير الوداع والقلى في الآية للمفارقة بعد الاتصال تشبيهاً بفراق المسافر في انقطاع الصلة حيث شبه انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة ، والقرينة إسناد ذلك إلى الله الذي لا يتصل بالناس اتصالاً معهوداً ، وهذا نفي لأن يكون الله قطع عنه الوحي .

فقوله : (ودعك) من التوديع ، وهو في الأصل الدعاء للمسافر ، ببلوغ الدعة ، وخفض العيش ، ثم استعير للمفارقة بعد الاتصال ، تشبيها بفراق المسافر في انقطاع الصلة ، حيث شبه - سبحانه - انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة ([57]) .

الترادف :

جاء في سورة (الضحى) (والليل إذا سجى) وقيل في سور أخرى (والليل إذا يغشى) (والليل إذا يسر) ؛ لأن من معاني سجى : سكن وهذا يمثل سكون الوحي وانقطاعه وهذا هو السكون ، والانقطاع ظلمة وهذا المعنى الثاني لسجى فكلمة سجى جمعت المعاني كلها التي تدل على انقطاع الوحي وسكونه . أما كلمة يغشى أو يسر فهما تدلان على الحركة وهذا يناقض المعنى للقسم في هذه السورة . وعليه فان القسم (والضحى والليل إذا سجى) هو أنسب قسم للحالة التي هو فيها من نور الوحي وانقطاعه وكل قسم في القرآن له علاقة بالمقسم به ([58]) .

وقيل (يعطيك ربك) ولم يقل (الله) إكراماً من الله تعالى لرسوله الكريم . فالرب هو المربي والموجه والقيم . وذكر الفاعل وهو الرب إكرام آخر فلم يقل لم تودع ولم تقل . والرب هو القيم على الأمر فكيف يودعك وهو ربك لا يمكن أن يودع الرب عبده كما لا يمكن لرب البيت أن يودعه ويتركه ورب الشيء لا يودعه ولا يتركه وإنما يرعاه ويحرص عليه. واختيار كلمة الرب بدل كلمة الله لأن لفظ الجلالة الله كلمة عامة للناس جميعا ولكن كلمة الرب لها خصوصية وهذا يحمل التطمين للرسول الكريم من ربه الذي يرعاه ولا يمكن أن يودعه أو يتركه أبداً ([59]) .

وقد تنبَّه المفسِّرون إلى أنَّ التعبير القرآني يعدل عن اللفظة إلى أخرى تعطي مفهومها ودلالتها المركزية نفسها ، تأكيدا لمعان وإيحاءات تفهم من كل لفظة في سياقها ، كما في لفظتي (الله) و (الرّبّ) ، فقد فرَّق الطيبي بين ﴿اعْبُدُوا اللَّه ﴾ (60) و﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُم ﴾ (61) ، بأنَّ في الثاني إيجاب العبادة بوساطة رؤية النعمة التي بها تربيتهم وقواهم ، وفي (اعبدوا الله) إيجابها من غير واسطة ، وعلى ذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم ﴾ (62) ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (63) . وقيل : حيث ذكر (النَّاس) ذكر (الرَّبّ) ، وحيث ذكر (الإيمان) ذكر (الله)(64). وقال البيضاوي : ((إنَّما قال (ربَّكم) تنبيها على أنَّ الموجب للعبادة هي الربية))(65). وقال أبو حيان في قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ 00 ﴾ (66) : ((حيث نُبِّهَ على الحكمة ذُكِرَ (الرَّبُّ) المقتضي للنعمة ، وحيث ذُكِرَ الوعيد ذُكِرَ (الله) المقتضي للجلالة والمهابة))(67) ؛ لأنَّ ((أحدهما إذا تضمَّن الآخر عند الانفراد ، لم يمنع أن

((56)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1/ 244.
((57)) الوسيط لسيد طنطاوي 1 / 4525 .
((58)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1/ 244.
((59)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1/ 244.
((60)) سورة المائدة : الآية (72) .
((61)) سورة البقرة : الآية (21) .
((62)) سورة النساء : الآية (1) .
((63)) سورة البقرة : الآية (278) .
((64)) ينظر : قطف الأزهار (206/1) .
((65)) تفسير البيضاوي (165/1) .
((66)) سورة البقرة : الآية (149) .
((67)) تفسيرالبحر المحيط (440/1) ، وينظر : قطف الأزهار (1/ 346) .

يخـــــتص بمعنـــــــاه عنـــــد الاقتـــــران ، كمـــــا فـــــي قولـــــه : ﴿ قُـلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ النَّــاسِ مَلِـكِ النَّــاسِ إِلَـهِ النَّــاسِ ﴾ (68) ، وفـي قولـه تعـالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (69) ، فجمع بين الاسمين : اسم (الإله) واسم (الرب) ، فإنَّ (الإله) هو المعبود الذي يستحقُّ أن يُعبد ، و(الربُّ) هو الذي يَرُبُّ عبدَه فيدبِّره ، ولهذا كانت العبادة متعلِّقَةً باسمه (الله) ، والسؤال متعلقا باسمه (الرَّبّ) فإنَّ العبادة هي الغاية التي لها خُلِقَ الخَلْق ، والإلهية هي الغاية ، والربوبية تتضمَّن خلق الخلق وإنشاءهم ، فهو مُتضمِّنٌ ابتداء حالهم ، والـمُصَلِّي إذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (70) فبدأ بالمقصود ، الذي هو الغاية على الوسيلة ، التي العبادة غاية مقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، تلك حكمة وهذا سبب))(71) ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (72) ، فقد جاء في سورة الأنعام : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (73) ، وعلَّل الكرماني ذلك بـ : ((أنَّ لفظ (الرَّب) تكرَّر في (الأنعام) مرَّاتٍ ، ولأنّ في (الأنعام) قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ (74) وفيها ذكر الحبوب والثمار ، وأتبعها بذكر الحيوان من الضأن والمعز والإبل ، وبها تربية الأجسام ، فكان ذكر (الرَّبِّ) فيها أليق)) (75) ؛ ولأجل هذا قال البيضاوي في قول موسى لقومه : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (76) : إنَّ (موسى) خصَّ اسم (الرَّبِّ)؛ لأنَّ المطلوب هو الحفظ والتربية (77) . ونبَّه (الطيبي) إلى مراعاة هذه الإيحاءات عند اختيار المفردة ، حين علَّلَ العدول إلى لفظة (بارئكم) في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ (78) ، فقال : ((ذِكْرُ البارئ هنا دون سائر الصفات مناسب للمقام ، لأنَّ معناه : الذي خلقهم أبرياء من التفاوت ، وهو نعمة جسمية ، وكان من حقِّ الشكر أن يخصُّوا مَنْ له هذه الصفة بالعبادة دون غيره)) (79) ؛ لذلك قال السـيوطي : جـــيء بـ (الرَّبِّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ (80) لا بلفظ (الله) ؛ لإفادة الإطمـاع (81) .

ويتأكد هذا الفارق في استعمال اللفظين في التعبير القرآني من خلال تأمُّل أسلوب الدُّعاء في القرآن الكريم ، الذي خلا من تعبير (يا الله) ، وإن ورد فيه تعبير (اللَّهُمَّ) ، إلا أنَّ الملاحظ على هذا التعبير أنَّـه كـان يـرد فـي مواضـع التنزيـه ، والقـوَّة والـبطش ، كقولـه تعـالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (82) وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (83) ، وقوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ (84) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (85) لذلك جاء لفظ (رَبَّنا) في الموضع الوحيد الذي جاء فيه تعبير (اللَّهُمَّ) في سياق الإنعام في قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً

((68)) سورة الناس : الآيات (1-3) .
((69)) سورة الفاتحة : الآية (2) .
((70)) سورة الفاتحة : الآية (5) .
((71)) مجموع الفتاوى (10/ 284) .
((72)) سورة البقرة : الآية (173) .
((73)) سورة الأنعام : الآية (145) .
((74)) سورة الأنعام : الآية (141) .
((75)) أسرار التكرار في القرآن (39/1) ، وينظر : قطف الأزهار (1/ 375) .
((76)) سورة غافر : الآية (27) .
((77)) ينظر : تفسير البيضاوي (90/5) .
((78)) سورة البقرة : الآية (54) .
((79)) قطف الأزهار (254/1) .
((80)) سورة البقرة : الآية (112) .
((81)) قطف الأزهار (309/1) .
((82)) سورة آل عمران : الآية (26) .
((83)) سورة الأنفال : الآية (32) .
((84)) سورة يونس : الآية (10) .
((85)) سورة الزمر : الآية (46) .

مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (86) في حين جاء تعبير (ربنا) في أكثر من مائة موضع في القرآن ،كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (87) ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (88) وغيرها كثير ، وكلُّها جاء في سياق الدُّعاء والتوسل ، ممَّا يؤكِّد التفرقة المقول بها بين لفظي (الله) و(الرَّبّ) . وتتَّضح هذه التفرقة بيِّنَةً في لغة الشعر ، عند دراسة الدعاء بالتعبيرين الآنفين (يا رَبّ) و(يا الله) ، إذ ستكون نتيجة الإحصاء مؤكِّدةً ، وبما لا يقبل الشَّكِّ ، أنَّ هناك تفرقة واضحة في استشعار معاني هذين التعبيرين ، هي المسؤولة عن العدول إلى أحدهما بحسب حاجة السياق .

وقد فرَّق أبو حيان بين المقامات التي تحدَّث فيها إبراهيم (عليه السلام) مع الكافر ، قائلاً : ((لـمَّا كان إبراهيم في المقام الأول الذي سأله الكافر عن ربِّه حين ادّعى الكافر الربوبية قال إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ 00 ﴾ (89) ، فلما انتقل إلى دليل أو مثال أوضح وأقطع للخصم ، عدل إلى الاسم الشائع عند العالم كلِّهم ، فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ (90) قرَّر بذلك أنّ ربَّه الذي يحيي ويميت هو الذي أوْجَدَكَ وغيرَك أيُّها الكافر ، ولم يقل: فإنَّ ربي يأتي بالشمس، ليُبَيِّن أنَّ إله العالم كلِّهم هو ربُّه الذي يعبدونه، ولأنَّ العالم يسلِّمون أنَّه لا يأتي بها من المشرق إلاَّ إلاههم))(91).

وقال تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ولم يقل يؤتيك ، فالإيتاء يكون لأمور مادية وغيرها (الملك، الحكمة، الذكر) أما العطاء فهو خاص بالمادة. والإيتاء أوسع من العطاء واعم والعطاء مخصص للمال. والإيتاء قد يشمله النزع والعطاء لا يشمله النزع. (آتيناه آياتنا فانسلخ منها) (يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء) وقد لا يستوجب الإيتاء لشخص ما أن يتصرف بما أوتي ، أما العطاء فلصاحبه حرية التصرف فيه بالوهب والمنح ولذا قال تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) لأن الكوثر أصبح ملكاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكما قال الله تعالى لسيدنا سليمان - عليه السلام - (هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب) أي له الحق بالتصرف فيه كما يشاء ([92]) .

التقييد :

جاء التعبير القرآني : (وللآخرة خيرٌ لك من الأولى) ولم يقل : (وللآخرة خير من الأولى) ، فقيدت خيرية الآخرة بالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الموضع ، قيل :

لأنها ليست خيرا لكل واحد ([93]) . ولو قال تعالى : (وللآخرة خير من الأولى) لما صح هذا القول لأنه سيكون عاماً للناس جميعاً وهذا ما لا يحصل ، وعندها ستفيد الإطلاق ولا يصح على عمومه لان بعض الناس آخرتهم شر لهم من أولاهم ولا يصح هذا الكلام على إطلاقه إنما لا بد من أن يخصص المعنى وهو للرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، بالذات ولهذا قال تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى) ([94]) ، وهذا القول غريب على جلالة قدر قائله فهو علم في هذا الباب ، بيد أن هذا سبق قلم منه حفظه الله فقوله : (ولو قال تعالى : (وللآخرة خير من الأولى) لما صح هذا القول لأنه سيكون عاماً للناس جميعاً وهذا ما لا يحصل ...) قولٌ صحيح من جهة أن غالب آيات الخيرية في الإثابة تأتي على التقييد كما في قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ

((86)) سورة المائدة : الآية (114) .
((87)) سورة البقرة : الآية (127) .
((88)) سورة البقرة : الآية (128) .
((89)) سورة البقرة : الآية (258) .
((90)) سورة البقرة : الآية (258) .
((91)) تفسيرالبحر المحيط (300/1) .
((92)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1/ 244.
((93)) الوسيط 4526/1.
((94)) ينظر : لمسات بيانية نصوص من التنزيل 1/ 244.

آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (البقرة:103)
و قوله : (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ)(البقرة: من الآية184)
وقوله : (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إ)(البقرة: من الآية280)
وقوله : (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ)(آل عمران: من الآية110)
على أن الإطلاق في الخيرية في مثل هذا لا يعني أبداً استلزامها لكل شخص بعينه يصح ما قاله العالم الجليل ، وإنما هي عند الإطلاق يقصد بها تقرير الأمر بذاته لا عمومه لكل فرد كما في قوله تعالى : (وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)(البقرة: من الآية221) فهذا من حيث تقرير عموم الخيرية لا من حيث عمومها لكل فرد والله أعلم ، وكما في قوله تعالى : (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (القدر:3) ، بل الأدل على ما قلت قوله تعالى : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى:17) فهي على نفس معنى الآية ﴿ وللآخرة خيرٌ لك من الأولى ﴾ من دون أن يتبادر للذهن أنها خير لكل شخص ، بل تقرير لخيرية الآخرة حتى أن كان بعض الناس آخرتهم شر من أولاهم ... على أنه قد يعتذر للاستاذ الفاضل على بعدٍ كبير بأن قصده بقوله (لما صح هذا القول) في سياق الضحى فقط باعتبارها خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم كما في أول كلامه . والله أعلم

مصادر البحث ومراجعه

1. أسرار التكرار في القرآن ، محمود حمزة الكرماني ، تح : عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، ط2 ، القاهرة ، 1396هـ .
2. الأعمال الكاملة لمحمد عبده (الجزء الخامس في تفسير القرآن) ، محمد عبده ، تح : محمد عمارة المؤسسة العربية للدرسات والنشر ، بيروت ، 1973 .
3. البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، دار الفكر للطباعة والنشر، ط2 ، 1978.
4. البديع في ضوء أساليب القرآن ، عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ط1 ، 1979 .
5. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، أبن الزملكاني ، تح : خديجة الحديثي وأحمد مطلوب مطبعة العاني ، بغداد ، ط1 ،1974 .
6. البيان في إعجاز القرآن ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار عمار ، الأردن ، ط1، 1989 .
7. تاج العروس شرح القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، طبعة المطبعة الخيرية ، 1306هـ .
8. التبيان في أقسام القرآن ، ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية بيروت 1982م /1402 هـ .
9. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، مؤسسة التاريخ ، ط1، بيروت ، لبنان 2000م .
10. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين الآلوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت
11. التفسير البياني ، عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، مصر ، 1962 م .
12. تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ط1 ، 1988 م .
13. تفسير الرازي (المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب) ، فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، بيروت ط3 ، 1985 م .
14. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، غانم قدوري الحمد ، مطبعة الخلود ، بغداد ، ط1 1986 م .
15. الرعاية لتجويد القراءة الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ، تح : أحمد حسن فرحات ، دمشق ، ط1 ، 1973 م .
16. تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) ، ابن جرير الطبري ، دار الجيل ، بيروت 1987 م .
17. علم البديع ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1974 م .
18. غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين النيسابوري ، (على هامش تفسير الطبري) دار الجليل ، بيروت ، 1987 م .

19.الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط2 ، 1979 م .
20.فن التقطيع الشعري ، صفاء خلوصي ، بيروت ، ط4 ، 1974 م .
21.تفسير القاسمي المسمّى (محاسن التأويل) محمد جمال الدين القاسمي ، تصحيح وتحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، ط1 ، 1960 م .
22.قطف الأزهار في كشف الأسرار ، جلال الدين السيوطي (911هـ) دراسة وتحقيق الفاتحة والبقرة ، تح : أسماء عدنان محمد سلمان ، دكتوراه ، كلية الشريعة ، جامعة بغداد ، إشراف د. حارث الضاري ، 1997م .
23.الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الزمخشري ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، وبهامشه الإنتصاف وشرح الشواهد .
24.لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (711هـ) ، دار صادر ، بيروت ،ط1
25.لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، الدكتور فاضل صالح السامرائي . دار عمار ، عمان ، ط5 2009م .
26.مجموع الفتاوى ، أحمد ابن تيمية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي ، ط2 1399 هـ
27.المختار من تفسير القرآن الكريم ، محمد متولي الشعراوي ، المكتبة الشرقية .
28.معترك الأقران في إعجاز القرآن ، جلال الدين السيوطي ، تصحيح : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1988 م .
29.المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصبهاني ، أعدَّه للنشر : محمد أحمد خلف الله ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1970 م
30.من وحي القرآن من وحي القرآن ، إبراهيم السامرائي ، منشورات اللجنة الوطنية ، بغداد ، ط1، 1981 م.
31.النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، الرماني ، تح : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ، دار المعارف ، 1955 م .
32.التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، مطبعة الرسالة / القاهرة ، 1986 م .